

الحب والتجسس

قصة بوليسية للكاتب الأمريكي جيمس جولد كوزينز
مقتله الأستاذ محمد طه جمعة

العارة ، بل هو
عقد يزين جيد
المدينة أيام أحداثه
وجناته مراتع آرام ،
ومورد عذب كثير
الرحام ، وليالى
حجراته مطالع أنوار
وأكام أزهار
وأوکار أطيّار

ومستودع أسرار . فزلنا بيت
من تلك البيوت اختصني به
صديق الدكتور شارل أحد
أطباء المدينة والشركة ، وقد أضاف
إلى علم الطب ثروة جديدة
باكتشافه علاجاً حديثاً لداء
ديزير ريفولييه ^(١) الأليم الذي
أعجز شفاؤه نطس الأطباء .
ولكنه كان بين غخاب شيبوليت
ذات الخطر . كان شارل واحداً
من النوابغ الذين هم على جانب
من البساطة والبلة . فلما استقرت
بنا النوى وألقينا بمصا الترحال ،
وقبل أن آخذ بنصيبى من الهناء
بقرب « أثيل » التى أضنانى

قصة قصيرة من وضع جيمس جولد
كوزينز J. G. Cozzens الذى ولد
في شيكاغو وتعلم في قارة أوروبا
وعاش في فرنسا وألمانيا وتزوج من
برنيس بوجارتن ووضع القصص
الطويل والقصير ومنها سان بدرو
وآدم الأخير والرجال والاخوة .
وهو في هذه القصة القصيرة التى
تنقل إلى العربية للمرة الأولى يرسم
لك التجسس الحربي كأنك تراه
ويحلل نفسية المرأة شيبوليت التى
أوردت نفوساً كثيرة موارد الهلاك
بفتنتها . وبطل القصة لديفيج يلهو
بحب الفتاة أثيل تارة وينصب الشباك
ليوقع بالمرأة شيبوليت طوراً ويفتنها
متنبهاً حركاتها ومسجلاً أخبارها ،
وما يزال بها حتى يعثر بها في مدينة
أنتيب بعد أن نجت من حبل المشقة
على يديه . وقد نالت هذه القصة جائزة
(اندرسون) ونقلت إلى بضع لغات

لما بلغت وصديقتي أثيل
نغر « أنتيب ^(١) » استقبلنا ماء
السيم تحت أقدام البلد ، يلهو
به الد والجزر ، فأخذنا بالجانب
الشمالي ، وسرنا على جسر بين
شقين من البحر غير بعيد ، إلى
أن رأينا قصوراً وجنّات راعنا
حسنها وزينتها ، وهى التى شادتها
شركة « كازينو ^(٢) » القمار
لموظفيها وحفظة خزائنها ،
ومصارفة أموالها ، ورؤساء
حصّاديه ^(٣) . وهى تمتد على
طريق الراكب أو الراجل كائنها
حتى تكامل ، من بلد عامر ، ذى
نصيب متوافر من مفاخر فن

بعدها ، ذكرت أنني تعودت أن أنزل بفندق
« ريتز » فأجد به راحتي وخلوتي وسلواي . ولما
كنت خلقت ألوفاً لو رددت إلى الصبا ومنحت

(١) ديزير ريفولييه بالفرنسية Desir Refoulé أى
الرغبة المكبوتة

(١) بالفرنسية Antibes ميناء على شاطئ الذهب في جنوب
فرنسا على قرب من (كان) ومونكارلو شهيرة بملاعب قمار
وكانت من مراكز جواسيس الدوليين أثناء الحرب العظمى
(٢) كازينو كلمة لاتينية إيطالية معناها مقر أو دار لجامعة
وتطلق على ملاعب القمار الملحقة بالفنادق الكبرى
(٣) حصّاد ترجمة لكلمة Crouhier وهو مساعد رئيس
المائدة الخضراء لجمع نقود اللاعبين ويفسها بين البنك وبينهم

بسواده ، ولا ألواح البلور التي دوى صوت تحطيمها
في الجو كأنه قصف الرعد أو طلقات المدافع ، ولكن
ذلك الانجليزى البكاء — وقد شهد اللبيب بتصاعد
من ناحيات القصر — خيّل إليه أنه ليست
الأشياء المادية هي التي تحترق وحدها ، ولكن
ذكريات شتى تأكلها النار فيما تأكل فينبعث لها
لهيب مختلفة ألوانه متباينة نفحاته ، فههنا ذكرى
لذة وهناك ذكرى ألم
— أو اتقى لذكرى فندقك العتيق قبل أن
تقلى ؟

— ليكون وفائى لك أمتع وأعمق وأطول
وأعرض وأجدى وأنفع !
— إننى أتركك على مضض ، وأنتظر على نار ،
وأصبر لك على عتاب مُبَيّت ، فإوراء هذه الزيارة
المعجلة وتلك اللفة المتلفعة بثوب من الحنان سوى
ذكرى لازعة من تلك الذكريات التي تتوارى ولا
ترى ، وتكمن ولا تفنى ، وتنوص في الماء ثم تطفو
ولا تغرق

فتحملت عتاب أثيل ولم يكن مبعثه سوى الغيرة
وإنها لأهون على من اطلاعها على السر الرهيب .
وحاولت أن أصرفها عن طول النقاش فقلت لها :
أذكرين ذلك القصر العتيق في وسط الطريق
بين أورايخ وتولوز ، ذلك الغنى القديم الذي قيل
إن أحد أسراء فرنسا شاده لمعشوقته من « النور »
قلت : نعم أذكره

قلت : إنه الآن مغمور بالشمس ، مخفوف
بصخور الجبال ، غارق إلى نصفه في الغابة يمصف
به هواء النهار وريح الليل على مر الأسفار والأصائل .
فلو أن ذلك الأمير الشاعر ما زال عائشاً بعد أن
هدم الدهر صرح سعادته ، وامتدت يده العائقة

قوته وجماله وإرادته ، لفارقت شيبى باكياً عليه ...
وقد فاتني الاستشهاد بهذا المعنى أثناء حوارى وأثيل
عند ما قبضت على بضع شعيرات من رأسى متلبسة
بجرعة البياض ، في وسط السواد وقبل الألوان ،
ولكنني أعرضت عن هذا الاستشهاد الآن لأنه
وإن كان عامراً بروح الوفاء ، إلا أنه معيد لذكرى
الشيب ومهدد بفارقة الشباب وأنا محتاج إليه في
عشرتها . فرأيت أن أكم الأمثال وأبوح برغبتى
في قضاء حق الزيارة لذلك النزل الذي أنست به
وعشت في ظلاله أحياناً

فلما طرحت الأمر بين يدي أثيل الفاتنة
وشرحت لها القصد من تلك الزيارة التي كانت
منطوية على رغبتى في مراقبة الجاسوسة شيبوليث^(١)
قلت لى : أتنى لمكان لمجرد الذكرى ؟

قلت لها : نعم إذا كان الوفاء قد غاض ، فلا
ترجو عند أكثر الناس وفاء للود ولا وفاء للحق
ولا وفاء للمدل ولا وفاء للذم ، فإنى لا أريد أن
أخون عهد هذا المكان الذي تحسبن أنه لا يحس
ولا يشعر

— وماذا ترجو من الوفاء لجناد تقول إنه لا يحس
ولا يشعر ؟

— إنه إن لم يجز على الوفاء إحساناً بإحسان
فهو لن يجزى عليه شراً . ولم أفانجها بالطبع في حقيقة
مطلبى خوفاً من إذاعة السر الذي كنت مرتبطاً به
فقلت لى : إنك تشبه ذلك الانجليزى الذي
وقف يبكى على حريق قصر بالمور وهو لا يملك فيه
شبراً ولا فتراً

— إننى أفهم ذاك الانجليزى وأعطف عليه
فانه لا يبكى الجدران التي تركها الحريق متشحة

(١) اسم الجاسوسة الدولية التي ينشئ القبض عليها

والشراب ونسيت الطعام، والعيشة ولم تذكرى الحب؟
قالت: النوم لأن فيه الأحلام، والشراب لأنه
يعنى التفكير عن الطعام، والعيش لأنه هو الحياة.
— والحياة أن تنبسط على صوت الأمواج وتستقبل
أشعة الشمس وأن تقنع بمشرفة الجيب في خلوة
صحيحة بعيدة عن فضول الأوغاد من العاذلين والحساد
والنمامين اللسنة الذين خلقوا ليكذبوا ويفتروا
ويفرقوا بين الأحباب

كان ذلك الكوخ الأثيني^(١) جميلاً حقاً لأنه
يمثل العزلة الشفاء والوحدة المتكبرة المتعالية يقصد
إليه من يريده، ولا يصل إليه إلا من يتمب في
سبيله. فكرة سامية عبر عنها صاحبها بالالتجاء إلى
شاطئ البحر في سفح الجبل، فهذه الأمواج الصادرة
والواردة تترنم بأنغام هادئة كأنها تهمس أسرارها
في أذن الرمال الذهبية التي لا يعلم عمرها إلا الذي
خلقها وأبقاها، وهذه الألوان البنفسجية تمكسها
أشعة الشمس وتداعبها وترقصها وتحضنها وتقفر
عليها فتتولد منها ذرات من النور الملون تخطف
النظرات من الأبصار كأنها لمحات الفكر في لمحة منه
لمحات التجلي الروحي. وهنا يشعر الإنسان بأنه جزء
لا يتجزأ من هذه الكينونة الكاملة... الله! فينسى
الماضي والحاضر والمستقبل؛ وفي طرفة عين — بل في
طرفه روح — إذا صح هذا التعبير — يتلاشى
الزمان والمكان

النور... نبع الفن الفياض ولباس السعداء،
النور الذي يفرحنا ويسرنا لأنه يطابق المعرفة الكاملة
القائمة على التأمل، والتأمل حياة الحكماء.
لقد أدركت الأديان قديماً سر النور ولا سيما في
الشرق فجعلت من النور «النعم السرمدي»

(١) نسبة إلى أثين وأصل اسمها اثينوا أى وراء الغابة

إلى قصره، أثينه يضن عليه بزيارة كالتى جدنا
عليه بها نحي هذا النهار؟

فأطرفت أثيل، وقالت: كلا! وهذا الذى
يحيفنى فأى ذكرى لك فى فندق ريتز تريد أن تحيها
وتحيها؟

— ولا شك أنك تذكرين تلك المصافير التى
كانت ترعى بين الدمن، كأن صغيرها الرقيق نفثات
آتية من مكان بعيد، ولعلها ذكريات أعجز الدهر
أن يحوها

— ولكن أنذكر أيضاً كيف انفرجت
الحشائش فجاء عن حيوان يشب بين الطلول فإذا هو
تعلب مفزع. فأنت لا تسمع دائماً صوت البلابل،
وقد ترى أحياناً وحوشاً كاسرة، حتى فى عالم
الذكريات، فلا بد لى أن أصحبك فى تلك الزيارة.
فقلت لها: جأ وكرامة، هيا بنا

وقبل أن نخطو فى طريقنا وردت باسمى المستعار
برقية من الكولونيل روكيه يأمرنى فيها بالانتقال
فوراً من بيت الطبيب شارل إلى فندق مجهول على
شاطئ البحر، لأنى أكون على استعداد للانتقال
بطريق الماء فى باخرة صغيرة، وأن أوجل تعقب
شيبوليث إلى غد. فلما علمت أثيل بتأجيل زيارة ريتز،
كادت تطير من الفرح. وقصدنا إلى النزل الصغير
الذى شاده شيخ فرنسى فى وحدة قعساء وأطلق
عليه اسماً مضحكاً للتعزير والتدليل «كابانون»^(١)
فأذكر أثيل بالكوخ الهندى الذى وصفه
برناردان سان بيير وأعجبت الفتاة بهدوئه كما أعجبت
بقصة بول وفيرجيني وقالت لى:

— هنا يحلولى أن أنام وأشرب وأعيش
— ولم ذكرت النوم ولم تذكرى الصحو،

(١) Cabanon تصغير كوخ. ويصح أن يسمى كويخاً!

خفيفاً حمله ، لاعباً لاهياً ، مستمتعاً بلذات الشباب
وما الحياة إلا الشباب !

وكان مشهد إيثيل في ثوبها الأزرق المنقول بلونه
وتطريزه عن ثوب « نورماشير » حذوك الفرزة
بالفرزة والخيط بالخيط ، وقبعها الصغيرة التي تنحسر
عن جبينها الوضاء ، وشعرها القسطنطيني الذي يبعث
به الهواء ، وعينها المسليتين الناعستين — كان
مشهد جمالها وشبابها ومرحها ورنات صوتها —
يبعث في نفوس العجائز تذكارات ساعات من العمر
زاهية ، ولذات في الحياة ماضية ، وقد تكون
الذكرى سلواناً وإن كانت لفاتت لا يعود . فقد كان

كل ما حولنا من الكون ينمو ويبسم للحياة
وبعد أن أخذنا قسطنا من الراحة على تلك
المقاعد الوثيرة تجاه البحر والجبل ، انتقلنا إلى إحدى
الغرف التي أعدت للنازلين بأعلى الكوخ الصغير
وهي مطلة على الألب ماريتيم^(١) وشاطئ الذهب ،
ومشرفة على المدينة الصغيرة التي تبدو عن بعد
كباقة أزهار متعددة الألوان . فكان أول ماعتيت
به « إيثيل » تصفيف الكتب والمجلات التي حملناها
في متاعنا ، وكان معها الثاني العناية بكلبنا العزيز
فيثفل الذي تعلق بها ، وانتقل جزء من حبه إياي
إلى سيدته ، فهو يتبعها أين ذهبت ، وينظر إليها
بعينين ملؤها الاخلاص والوفاء حتى ليكاد ينطق
بعبادتها .

فلما بدلنا ثيابنا نزلنا للغداء ، وكان من سمك
الدراك وحساء الخضر وفاكهة ونقل ونبذ جراف
الذي خزنه صاحب الكوخ في كهف عتيق في أحد
بيوت أنتيب القديمة ليكسب لذة القدم ، وصفاء
اللون ولذعة « باكوس » ذات النشوة المدهشة
ولما أن فرغنا من غدائنا « التنسكي »^(٢)

(١) سلسلة جبال (٢) نسبة إلى الفنك

وخلقت « هرمر » الفارق في النور الصافي ؛
وإهرمان الفارق في الظلام الأبدى
وكنت صامتة فأخذت إيثيل بيدي وسألني
عن تفكيري فقلت لها وأنا أنظر في عينيها :
— أفكر في الجمال وهو الشماع الأول من هذا
النور السماوي ، وهو الرسالة السامية الموجهة إلى
هذا العالم الأرضي من الذي قال للنور كن فكان ،
والذي خلق الانسان وجعله أجل الكائنات وجعل
المرأة أجل من الرجل وجعلك أجل النساء :
فضحكت إيثيل وقالت :

— هل هذا الذي يشغل بالك ؟

قلت : نعم ، لأنني حين أرى عجائب نظام الوجود
إنما أجد صورة أحملها في عقلي ، وإنني إذ أحل هذه
الصورة أستطيع أن أندمج في الطبيعة وأسمعها
هامسة فأفسر همسها وأصبح بها : « هذا الذي حاولت
أن تقول » إن الطبيعة نفسها تستطيع أن تفهم
نفسها والعقل لا يفهم إلا العقل ، وحين يتم الفهم
لا يبقى من كل ما يشغل العقل أو يستهويه سوى
شيئين : الحب والجمال ، الحب أولاً لأنه هو الأعم
الأشمل ، والجمال ثانياً لأنه أحد مظاهر القوة التي
تربط العابد بالعبود إلى الأبد ... إلى الأزل ...
وفيه تنطوي أسى معاني الخلود والبقاء

— ٢ —

البحر والنور ، وموسيقى الأمواج ، وهبات
النسيم ، والمقاعد الوثيرة ، والحرية المطلقة ، والوحدة
المهذبة ، تلك أدوات الحياة في « الكابانون » وتلك
هي التي تحبها إيثيل ، ولكننا لم نكن الضيفين
الناشرين اللذين صادتهما محاسن ذلك الكوخ فقد
كان هناك نساء ورجال بلغت بهم السن ذروتها
فهم يؤثرون أن يقضوا أياماً بين المياه الصافية والجمال
العالية يتلهون عن أنقال الشيخوخة بمشهد الشباب

ضميرها ، وتهدم نفسها ، مذ كانت أنفاسها معدودة وحفرتها معدة ، وهلاكها محققاً . أتذكرين تلك المرأة التي أظهرت الصحف صورتها وسجلت أسماءها وألقابها ووصفت ماضيها وأوردت أخبار أهلها وذويها ؟ ولا يزال بعض الناس ولا سيما الذين تماونوا على إلقاءها من برائن الكولونيل فودرويان^(١) محتفظين بقصاصات من تلك الصحف ومثل من صورتها ناطقة وهي لا تختلف كثيراً عن حاضرها . كانت تلك الخواطر تجول بنفسي عندما تأهبنا للزيارة ولم تتخذ إثيل زينة نادرة ولم تتحل بشيء من حلها الغالية ، وقد قنعت بلبس فستان بلون البن الطحون ، وجعلت حول عنقها عقداً من اللآلئ الصغيرة له واسطة من حجر العقيق عليه نقش حمامة ، وتقبعت بقلنسوة من لون الثوب مقصوفة على شكل جناح الطير

فكانت لها تلك الروعة الغريبة التي تعبر عن الجمال وشدة الجاذبية

وأسمى منظرها مشبعاً بالأحلام والسحر فبعث في نفسي نشوة غريبة وفيضاً قوياً ، وأخذت أسأل نفسي :

— أها هذه المكنة من نفوس الآخرين ؟ فإن كان كذلك فويل لي ، فإن كل الرجال يمشقونها ، وويل لها لأنها سوف تمشي فريسة الاستهواء والغواية ، وهي مصدر تلك اللذة المجهولة التي ينبثق سحرها من نظراتها ومن صوتها على هذه الهيئة التي تعجز أداة التصوير عن أداء بعض حقيقتها . انتقلنا إلى فندق ريتز ، فوصلنا بعد أن عدنا أدراجنا على جسر البحر وتوجهنا إلى يسار خط الحديد ، وكان

وجلسنا نشرب القهوة بلغتنى البرقية التي كنت أنظرها ، وفيها الأمر بمراقبة شيبوليث فأردت أن أذكر إثيل بزيارتنا لفندق ريتز

وكانت أنتيب في تلك الفترة كمدينة ييارتز ، مستقر التجسس الدولي يصلها في كل قطار أفراد وجماعات من كل جنس ولون ، يجتمعون ويتفرقون ويتبادلون الأسرار ويدونون ما يصلون إليه من الأخبار بأنواع من اللغات الرمزية ، وكلهم خبير بفنه ، دقيق في عمله ، حريص على السكمان ، ولا سيما النساء منهم اللواتي كن منجم الفتنة وعش الدفارة ، ووكر البلاء ، ومنايع الدماء ، ومنايت الردي ، ولا سيما أولئك النسوة اللاتي اتخذن أنتيب وبلدة « ييارتز »^(٢) وكان ونيس^(٣) مرسى لدعائم الشرحى وصفها « بومبايجيه » رئيس الخفية الفرنسية بأنها مدن عشش بها الشيطان وضرب فيها قبابه ؛ ومن أشهرهن تلك المرأة التي اعتقلت في وكرها كالأفي الطيبة ، وسلط عليها سيف المجلس العسكري رأسه الكولونيل فودرويان . فكادت تصافح الموت وتعتنق قبراً مجهولاً في ضواحي مونكارلو لولا أن رجلاً صحيح النية ، خالص الضمير ، ظن نجاتها تورثها التوبة فتغسل بدموعها دماء إساءتها فتعنى على ما كان من جرمها ، وتقلع عن مزج خبزها بدماء فحايها ، فتدخل في الأمر وتوسط وتشفع وتوسل حتى خلص عنقها من الجبل الذي قتلته بسوء فعلها ونسجته من خيوط شرها ، فما لبثت أن فازت بجملدها حتى رجعت عن توبتها ، ونكصت على عقبيها ، ولم تذكر تذللها وانهييار

(١) مشى جبل على شاطئ المحيط الاطلنطي من أعمال اسبانيا

(٢) مثل ييارتز ولكنهما فرنسيتان على البحر الابيض

(٣) نشر الكولونيل برافوم ديلافرتيه مذكراته عن أسرار الحرب العظمى وأقضى في سرد هذه الحادثة (مطبعة كوندورسيه باريس)

تصطك ، وقد رجعت إلى الوراء كأنها حيال أفعى
قائلة من أفاعى الهند الصاعقة الساحقة التي لا ترحم
بشرأ ولا تخشى وحشاً كاسراً

ف نظرت ورأى فاذا بها ... المرأة ... شيوليث
اليهودية الحسنة الملعونة التي كان لى معها تلك
الفاجعة الأليمة منذ عام .. وكانت اختفت عن الأنظار
وانقطع ذكرها على الألسن والأسماع ، وظلت فئة
من الدين يحسنون الظن بالأقدار والأيام أنها قضت
فيمر قضى فى كارثة الباخرة « دياديم » التي غرقت ،
أو أنها بجمت نفسها ندماً وجزعاً من الصورة التي
تركت عليها ضميرها بعد اتصالها بكل رجل من
الرجال الأربعة أو السبعة الذين كنت آخرهم .
أو أن شهماً من هؤلاء الفتيان الذين يفضلون
الكرامة على الهوى ويجعلون الفضيلة أولاً والشهوة
فى المحل الثانى قد طعمها بخنجر أو أفرغ فى جلدتها
الشرطاني درهما من الرصاص المسمم

ولكن لا ! لا هذا ولا ذاك ولا تلك . وهامى ذى
شيوليث اللعينة ماثلة أمامى ، شاخصة إلى يبصرها ،
محدقة فى وجهى بيمينها الساحرتين ، ثم تقلب أجفانها
فى إيثيل ، وهى تحرق الأرم وتكاد تنشب فيها
أظفارها لتفترسها لغير ذنب سوى أنها رأته فى
صحبتى وأنا تلك الضحية الوحيدة التى أفلتت من يدها
ونجت من حباتها بمجزئة إلهية . ولعلها شعرت
بغريزتها الشيطانية أن أوان الانتقام والعقاب
قد حان ، وأنها إن خلصت من جبل المشقة بالأس
فلن تنجو اليوم أو غداً . وقبل أن يفتق الدكتور
شارل من دهشته بلقائى ، أو يتختم صيغة الترحيب المتفق
عليها بين أفراد تلك الطبقة بادرت إلى تنفيذ عقد
سرى متفق عليه بينى وبين الجاسوسة شيوليث ،
فخيتها كأنى لا أعرفها ، وقبلت يدها على ما يقضى به

الفندق حافلاً بالأضياف الذين انتشروا فى ردهاته
وشرفاته وحول شجيرات حديقته المصغرة التى كنت
أشبهها بمحديقة ليلبيوت^(١) . فكان نصيب إيثيل من
نظرات الرجال والنساء ما كان بين حاسدة إياها
وحاسدى ، ولكننا كمادتنا لم نبال ولم نمر أحداً
التفتاناً ، لأن معظم البلاء فى اعتداء الناس عليك ناتج
من تشجيعهم بالنظر إليهم والاكتراث بهم . وقديماً
قالوا : « من وطأه الأبصار وطأه الأقدام ! »
فكان لهذا التسامى عن الناس أثره الطيب فى حمايتنا
من الناس

وقد اتخذنا مكاناً قصياً وأخذنا نرقب المارة
وتتبع بأنظارنا قاطرات البخار فى رواحها وغدوها
وأستعيد بمفردى ذكرياتى ، وإيثيل صامتة فى حيرة
من أمرى : أبرئ أنا من حب النساء كما ادعى أم
عجب قديم جئت أحج إلى كعبة غرامى الذى تحطمت
أصنامة رغم أنقى ؟ ولكننى كنت بمنجاة من سوء
ظنها ولو قليلاً لأنها قبلت الاقتراح فى اصطحابها
لزيرة هذا الفندق الكبير

— ٣ —

ولم نؤشك أن يستقر بنا المقام ونحتسى الحسوة
الثالثة أو الرابعة من الشاى حتى دخل الدكتور
شارل صاحب الفضل الأول والآخر (إلى يومنا
هذا) فى اكتشاف العلاج لداء ديزير ريفوليه الأليم
ومعه امرأة لم أتبينها فى أول الأمر . ولكننى عند
ما تحققت شخصيتها أدركت سر الأمر بانتقالى من
دار ذلك الطبيب . ونظرت إلى إيثيل فاذا لونها ممتقع
ووجهها باهت ، وقد تقلصت عضلات الابتسام ،
واصفرا الأنف وارتعشت الأطراف وكادت الأسنان

(١) يشير المؤلف إلى شعب الأقزام الذين لقبهم جوليفر
فى أول أسفاره

على موجدة ، فقلت للمرأة :

— أى نعم ! ياسيدتى ، أذكر لقاءنا الأول على شاطئ كان ، وإقامتنا فى مونتكارلو ، فقد كان لقاءً موفقاً وإن لم نكن على موعد ، وإقامتنا السعيدة وإن كانت قصيرة الأجل قد انتهت بطول الأجل لبعض الناس !

فقلت : ما زلت أترصد ورود كتاب وأترقب بلوغ خبر منك ، ولكنك أغفلت ذلك ولم تحمل بما كان بيننا من مودة

فنظرت إلى الأنسة إثيل وهي مصيخة للحديث مصغية إليه واعية لكل ما فيه فإذا نفسها قد نهضت وفارت

وكان الدكتور شارل أخذ يجي إثيل ويرحب بها وهي عنه لاهية لاتميره أذناً

فقلت : لئن تلبثت ياسيدتى فى الاتصال بك بالبريد الجوى أو السريع أو المتباطى فليس معناه أننى نسيتك أو تهانوت فى شأنك . وما كان أحوجنى فى تلك اللحظة المسيرة إلى مداراتها ومساهاها

فلم تفتها غايبتى من تلتقى بها وعلمت أننى لا أفعل ذلك إلا حرصاً على كرامة الفتاة التى مى وطهرها وعفها وأدبها

فقلت : من الناس من يكفر نعمة الاخلاص ويغتمط إحسان الوفاء ، ومن هؤلاء من لا طاقة لهم بالقيام بجرمة الصنيعة

فقلت فى نفسى : « لا طاقة لنا اليوم بمجالوت وجنوده » وما هذه المرأة إلا روح متمردة متقمصة من أرواح هؤلاء الجنود . وقلت لها : صدقت ! وبدأت أنظر إلى الدكتور شارل الذى كان يشرح لإثيل أعراض الداء الذى وفق إلى علاجه وأنا

تلك العرف السخيف المحبوب إلينا من روسيا القيصرية والمحبوب لدينا بعد أن استمرأنا طراوة الأكف الناعمة والأنامل اللينة

وفى الحق أننى عندما قال الدكتور شارل « مدام راشيل لو كسمبرج » حدثتني نفسى بأن أقطع يدها بأنيابى قبل أن تنهشها بأنيابها . وقد أطلت القبلة وأحسست برد يدها وأحسست هى أن شفتى تنفرجان فسارعت بسحب يدها باسمحة بفمها وهي تنثر الشرر من عينيها

وقد كان بالى منشغلاً باسمها الجديد المستعار وبالصدمة التى سوف تصيب الطبيب عند ما يقف على حقيقتها ؛ ولم ينبهنى من ذهولى إلا قولها لي : « طالما اشتقت إلى رؤيتك بعد لقائنا الأول على مقربة من هنا فى مدينة كان ، وإقامتنا القصيرة فى مونتكارلو .. » وكان الدكتور شارل لاهياً عنا فى تلك اللحظة كعادته عند ما يستغرق فى أفكاره التى تدور فى ذهنه حول العلاج الجديد الذى اكتشفه لمرض « الدزير ريفوليه » فلم يسمع إلى ما قالته مدام شيبوليث ولكن الأنسة إثيل نظرت إلى نظرة إدراك وعتاب

ففهمت أن رؤيتها استنارت فى قلب شيبوليث دفين حقددها وهي امرأة تغلى فى قلبها مراجل العداوة والحسد والبغضاء على الرغم من جمالها وذكائها وفطنتها . ولعلها ورثت من أهلها من الحفاظ ما يحلل حقددها على الدنيا بأسرها ؛ فلما هاجها أنجها ورأيت ما يعقب ذلك من سوء الأثر فى نفس الأنسة ، حاولت باللطف واللين أن أستل سخيمة قلبها وأطفى نار غضبها لأننى عرفتها بذئثة اللسان سبابة قوية فى النميرة ، فأردت أن أتق قوارصها ونواقدها ، فلم أجد مخرجاً بغير مجاملتها وملاطفتها وإن كنت لا أصبر للأنسة

واستعددت له وإن كان حياء البنت وخفرها يموقني
ويلجمني ويمقد لساني
فقلت : أتذكرين يا سيدتي الجواسيس ، ولا
سيما الذين حكم عليهم بالاعدام في مونتكارلو في العام
الماضي ، من هلك منهم ومن نجا ولو إلى حين ؟
— ٤ —

فاصفرت شيبوليث ، وارتعدت ، وجد الدم في
عروقها ، ولهت ، وضاق نفسها ، واختنقت
واكفهر وجهها ونجهمت ، واتسعت حدقة عينها
اليسرى ثم ضاقت كالسنور الذي يثور قبل أن يهاجم
جرذا ، أو كالأفعى التي توشك أن تنفث سماً لتلسع
مهاجماً ... ثم ملكت ناحية غضبها ، وربطت حزمة
أعصابها بسلك من فولاذ لإرادتها وكظمت غيظها
وقالت :

— تدهشني قوة ذا كرتك كأنها بئر عميق
لا ينضب ماؤه !
— أو جُـب مظلّم يخفي في جوفه أشلاء أشرار ،
وجماجم فخار ، وهياكل قتلى الغرور والنخيمة
فالتفت شيبوليث نحو الطبيب الذي مازال ساهياً
لاهياً كالأصم وسط المركبة الحامية تستنجد
لينقذها من المأزق الذي ألقت بنفسها فيه ، وقالت :
هذا الشئ قد برد ، والزبدة تجلدت والربى تحول
لونها والخبز المقدد تقلصت خرومه حتى عاد كالأسفنج
القديم !

فألقي الطبيب نظرة زاهدة على المائدة ، وقال :
— أنت تعلمين أن الشئ ينبه أعصابي ،
والزبدة الثلوجة المزوجة بحمض البوريك (١)
تسممني ، والربى تزيد مقدار الجليكوز في كبدي ،
والخبز المموه بالدمس يؤذى طحالي

(١) قد أثبت التحليل الكيماوي أن هذا الحمض يضاف
إلى الزبدة ليحفظها من الفساد

أنهز فرصة للفرار من هذا الميدان ، فان المرأة توهمت
أنني صرت في ملكتها وأنها تسترقني وتعتبدني
لأنني أريد ألا تستطرد في حديثها بمسمع من
الآنسة . وإذا أنا أفكر في وسيلة الهرب من تلك
المرأة أراها تكدج بي وتدقق النظر في وجهي كأنها
قرأت في صفحته أنني أحمل في هذه المرة نذير
هلاكها وأتربص بها الدوائر

فقلت : أوه ! أوه ! يا موسيو لودفيج لقد
وخطك الشيب ، وقلب لك الزمان الذي كنت
لا تبالي به بحسنه ، فعاضك من نضارة عودك ذبولاً
ومن سواد فوديك قتيلاً
فقلت لها وأنا أحرق الأرم :

— نعم ما من رجل إلا نقض الدهر صرته
وألان عريكته . تلك سنة الطبيعة ، وقد ودعت
شبيبتي التي طارت وداع محب هاديء لم يطر الفراق
لبه ، ولم تعصف بعقله رياح البغضاء والهجر
والقطيعة ، فلم أشعر قط بالاخفاق والخيبة
— الأمر ظاهر فانك لا تترك فرصة حتى
تنهزها ومثلك إذا واطب على الرقص على هذا التوقيع
لا يهرم ولا يحدوب حتى إذا لفعه الشيب ووخزه
الكبر وأكل عليه الدهر وشرب

وكان الغيظ قد بلغ من الآنسة ومنى مبلغه
ولكنني أنفت أن أسلم لهذه المرأة بالهزيمة قبل
القبض عليها فضحكته وقهقهته لعل أفيق ذلك
الطبيب الغارق في دائه ودوائه ، ولكن هذه الاستغانة
ذهبت أدراج الرياح . وكنت أظن أنه أعز جواراً
وأمنع ذماراً مما رأيت ، ولكن المسكين كان كالسكران
بخمرة كشفه عن أسباب الداء وأبواب الدواء
فصحت عزيمتي على أن أخنقها يوترها وأرميها
بمحجرها وأرد كيدها في نحرها ومحفرت لذلك

المرضعات . أليس الأمر ما أقول يا موسيو لافيج ؟
أو أنك تحسبها طفولة ثانية وأنتى أقضم الحلوى
بالأسنان الخضر ، ولا أعلم بعد علم شيئاً كما وقع
لصديقك هاجنيك قبل أن يلحق بأسلافه . وكان
هاجنيك أحد جواسيس الألمان الذين أعدتهم
الفرنسيون ، فضحكت ضحكة الانتصار وضحكة التلذذ
بجديتها المبثوثة في جوانبه النكتة المفاجئة والمفارقة
الطريفة ، وأدركت أنها تريد مهادنتى (أما المصالحة
فلا !) بادخال السرور على نفس الأنسة التى لم يكن
بينهما نار ولا ضغينة مبيتة ، فلم أشأ أن أنفخ في
نار عدائها التى أوشكت أن تصير رماداً ولو إلى حين
وتركت عنائها على غاربها وأرهفت أذنى لا تكون
رقيقاً على قولها ، وتظاهرت بالانشغال عنها بمحدث
صاحبها الطبيب الذى لم يكن شىء يستهويه ويملك
عليه مشاعره غير الأدوية النادرة والعلل المعجبية
والأدواء الغريبة . وفي تلك اللحظة جاء أحد الخدم
برسالة إلى شيبوليث يحملها فى طبق من الفضة . فما
لبثت أن فضتها حتى عبست ، ثم ابتسمت تصنعاً
لتدارى علة عبوسها ، ونهضت معتذرة . نجفت أن
يكون شربك يقظ من أفراد عصابها الدولية قد
أنذرها وحذرها وأنها مولية الفرار قبل أن أتمكن
من أداء واجبي الذى ينحصر فى تضيق الخناق عليها .
وانتهزت إثيل هذه الفرصة ودنت منى وقالت :
— هل عرفتى من زمن طويل ؟
قلت : من هى ؟
قالت : تلك التى لا أحب أن أسميها والتى تنتظرها
بفارغ الصبر . فقلت بينى وبين نفسى : لقد قلت حقاً
ولكن لست أفسره ! ثم خاطبتها :
— آه تقصدين لا ريب إلى شيبوليث
— لم أستطع قط أن أنطق باسمها

— ولم إذن طلبت الشاى المستوفى ؟ (تيه
كومبليه)
— لأجل ضيوفى ولأجلك
— أظن أننا نستهدف لأخطار تلك العلل التى
أجدت سردها وأحسن تشخيصها ؟ إنك كرب
الدار الذى يقدم فى طعامه ليمسك المدعو عن الأخذ
منه ! فقالت الأنسة آيدا :
— ولا سيما وقد غابت الشمس وجنحت
شيبوليث — وما لنا وغياب الشمس وحساب
الساعات ونحن وأتم فى نزهة ! فقال الطبيب :
— هل الدهر إلا ليلة ونهارها تقضيها فى
العمل واللعب ؟ وهل الحياة كلها سوى طلوع
الشمس ثم غيابها . فأجابت الأنسة إثيل :
— لقد أتينا فى شباب النهار ، ولم نأخذ قسطنا
من الراحة وقد مال ميزانه
شيبوليث — أية راحة تمدل لقاء الأصدقاء
ومسامرة الأصحاب
الآنسة — ولكن هذه الفطر الرائحة الغادية
غير منقطعة تؤذى سمى ، وتهز أعصابى ، ولا أظنها
إلا فاعلة بك وبالسيدى ما أحسه وأستشعر به
— أما أنا فتعودتها ، وصار يحلولى أن أرقبها
وأعدها وأنظر إلى سيول الناس منهمرة ، تدخل
وتخرج ، وتصعد وتهبط ، وتجتمع وتفرق ، وتندفع
وترابط كلما فتحت بوابة المنزل وأقفلت ، كأنهم
وكانها قناطر الماء أو نبض الحياة ، وحركة الكون .
وكنت لأول عهدي بالأقامة فى هذا الفندق أحلم
فى نوى بالقطار وصغيره وهزته ورجته وهراج المحطة
ومرجها ، وأفرع أحياناً من رقادى على صوت
قادم أو استعداد راحل ، ولكننى صرت الآن
أطمئن لتلك الضوضاء اطمئنان الطفل إلى أغانى

فضحكت وقلت :

— ما أصدق وصفك ! سواء أكان ليثى
بروهمان فاوست أو مفستوفانه كما وصفته وأذكر
من كلماته في زوجته قوله : « إن الحكمة تتدفق
من شفيتها كاسمها ، حقاً إن دم إسرائيل الزكي
ليجري في عروقها »

— قلت لي إن اسمها « سنبله »

— ومعناه بالعبرية غدير أو نهر ، فكان الرجل
غارقاً بين السنبله والغدير ، وكان على الرغم من حبه
إياها وإعجابه بها وبدمها الزكي يعلم أنها عريقة في حرفة
الزوجية بصيرة بأنواع الأكاذيب التي تخرج من
الورطات وتنقد المرأة الكذوب من أخرج المأزق
— فضحكت عابداً وقالت :

— لعل عشيرها الحاضر الدكتور شارل يستنبط
دواء يتجرعه الرجل فينقاد لزوجته انقياداً أعمى ثم
يقنع الانسانية المتطلعة للانتقاذ على يديه بأن الحضارة
لن تبلغ شأوها الأعلى حتى يصبح للزوجات الأمر
المطاع . وفي تلك اللحظة عادت شيوليث فابتسمت
لأنيل وقالت لها :

— ما أجلك وأذكاك ! لقد أحسنت الطبيعة
إلى الدنيا بك وبمثيلتك ، ألا إن الروعة والجمال والفرح
لن حبثهم الطبيعة بالادراك ، ففهموا سرعة الدهر
وقوة سيره وكر الفداء ومر العشى ؛ أما الندم
والحسرة فللذين لم يدركوا ، فتباطؤوا

الأولون علموا أن تحصيل اللذة الراهنة غاية الحياة
ومرماها وهدفها ونهايتها ، والآخرون هم الذين
توانوا وتمسكوا بالفضائل فانتظروا حتى أفلت الزمان
وانفلت الأيام من بين أيديهم ساخرة من تهاونهم ،
فلما انتبهوا كانت الفرصة الذهبية قد غادرتهم صرعى
الهموم والندم

— إنه لفظ عبري ورد في التوراة معناه سنبله
وقد اتخذته المحاربون من بني إسرائيل كلمة سر
أو جواز مرور ضد خصومهم في بعض وقائعهم
— وكيف وصلت هذه التسمية إليها ؟

— هذا ما لا علم لي به
— كيف عرفتها ولم تقف على سر اسمها ؟
— لم تصل المودة بيننا إلى هذا الحد

— وكيف تنار مني عليك إذا لم تكن مودتكما
معتقة كهذا النبيذ على الأقل ؟ قلت : عرفتها جاسوسة
وعرفتها زوجاً ليهودي اسمه ليثى برهلمان كانت تعنفه
في الصباح والمساء تريد أن تسيره في الصغيرة والكبيرة
كما تشاء وتهوى

— هذا لا يدهشني فقد زودتها الطبيعة بأسان
أحد من السيف ، وإرادة قوية كالفولاذ ، وذكاء
نافذ كالسهم المسدد ، وقلب يغلي بالغليظ والحقدين
منه مراجل البخار

— إنك تصفينها كما لو أنك عرفت من أعمار
— وهل كانت محبوبة لدى زوجها ؟

— نعم كان يحبها ويتفانى في رضاها ، فإذا
هاجت عليه وأنشبت أظفارها به وسلقته بلسانها يتمم
قائلاً : « لا بد لكل نقمة من آفة ، ولا بد دون
الشهد من لسعات النحل »

— لا أظن زوجها رجلاً كالرجال

— كان كهلاً قصير القامة مستدير الوجه قد
طنى الشيب على رأسه الضخم ولحيته الكثمة وحاجبيه
البارزين المتفافين على عينين فيهما حدة وبريق كأنهما
سراجان وهاجان أين منهما نور الكهرباء ، وفي جبهته
الواسعة العالية أسطر مستطيلة عميقة متوازية كأنها
نقشت بيد راسم لا يخطئ في مد الخطوط المستقيمة
— كأنك تصف فاوست الحكيم قبل أن يبيع

قلبه إلى الشيطان

هادىء ، ولكن له ضميراً وكرامة ؛ فلما هاجته وادعت أنه نائم ككلب أهل الكهف انتبه ليثبت لك وجوده الأدبي ؛ وليس للكلاب وسيلة للتعبير عن أفكارها غير هذه . وفي الأمثال القديمة : لا توقظوا الكلاب النائمة

شبوليث - وقالوا : على نفسه جنى غليوم تل ، لأنه استهدف للأخطار باختياره

- ولكن كلبنا اسمه فيثفل ، وخير لنا وله أن نعود إلى حوارنا الهادىء . كنت تقولين إن الضمير يتعطل إذا اتجهت نفوسنا إلى الخير المحض ، ولكن الخير في نظرك أمر اعتبارى ونسبى فلا يمكن أن نصفه بالمحض . وخلاصة القول في هذا البحث اللذيذ الذى أثرت ربحه على غرة منا ومن كلبنا أن الإنسان لا يميل إلى الخير دائماً ولا إلى الشر دائماً ، وأن الضمير يحتاج إلى حكم العقل أولاً ليستيقظ ، لأن الحكم على ما يتفق والفضيلة أو يخالفها يحتاج إلى ميزان العقل ، والعقل يخطئ ويصيب بالنسبة للزمان والمكان والافراد والجماعات ، كما أن العقل خاضع لقانون الوراثة وقيود التقاليد وأغلال العرف والقوانين الوضعية ، فإذا خضع الضمير للعقل أمسى عرضة لتضارب أحكامه فتجههم وجه شبوليث ثم استدركت خلقها فبدشت ودعتنا للعشاء فرجوت إيثيل أن تخاطب إدارة فندقنا فى الاعتذار ، ولم يكن مقصدي إلا أن أبعدنا عن حلبة المعركة فانفلتت فى المدخل وقالت شبوليث :

« قيود » التقاليد و « أغلال » العرف ! ما دخل القيود والأغلال ... ؟ أن تكون فى هذه المرة ؟ ولم تكذ تنتهى حتى أحاط بها رهط من رجال الخفية الحربية بقوادم كولونيل « لادوك » نفسه .

فدهشت إيثيل من روح الإباحة فى حديث شبوليث وقالت : فى اعتقادي الذى يحلو لى أن أنعسك به أن الواجب يقضى علينا أن نكتم أنفاس اللذة الشريرة على قدر الطاقة وأن نشجع اللذة الخيرة .

شبوليث - إذا فعلنا هذا محونا الضمير وأسقطناه من حساب عقولنا ، ولا شك فى أنه يموت من تلقاء نفسه بتعطيل وظيفته لأننا ما دمنا لا نشتهي إلا الخير ولا نقصى إلا الشر فإن الضمير يستغرق فى نومه كما استغرق هذا الكلب الجميل تحت قدميك آمناً مطمئناً ، لأن الحاجة إلى يقظته ومراسته معدومة ، والضمير كلب الحراسة الذى ينهض كلما وجد داعياً ليقظته

وفى تلك اللحظة حدث أمر غير منتظر ، فإن شبوليث لم تكذ تفرغ من ذكر الكلب الحارس ويقظته حتى نهض فيثفل ونبح فى وجهها نبحة حادة شرسة وأخذ يهتر بالغيظ وهو يوشك أن يهاجمها . ففزعت المرأة وجزعت وأخذتها رعدة الخوف وتناولت قدحاً من الماء ورفعت يدها لتقذف به وجه الكلب الأمين ، ورأيت الغضب يرسم على وجه الأنسة ع كما ارتسم الرعب على وجه المرأة . فقبضت على معصمها وقلت لها : حذار أن تفعلى لئلا يطيش حلم الكلب فلا تقدر على حمايتك منه . وخلصت القدح من أناملها التى استماتت عليه فقالت :

- لم يخطر ببالى أنك تصحب كلباً مستوحشاً غير مكم لتحمته على مهاجمة أصدقائك . فإن التسليح بالكلاب الشرسة الغليظة علامة على الخوف الذى يخالج قلوب أربابها

قلت : أنت مخطئة يا عزيزتى فإن كلبى وديع

وعادت إيثيل والكلب في أثرها . فأشرت إليها
بألا تتقدم خطوة ، خشية أن تبصر بجثة الطبيب
الذى كان يتحدث إليها منذ برهة وصار الآن يتخبط
في دمه ، فسألتنى وهى لهنى :

«أسمعت طلقة المقذوف ؟ وأجبتها متجاهلاً : أى
مقذوف ؟ لعلها فرقة إطار المطاط في عجلة لسيارة
جاجة ... وهرولت إليها قائلاً :

« لم يبق لنا إلا أن نقضى أيام الراحة بعد التعب
في فندقنا اللذيذ نداعب كلبنا الأمين فينفل ، فهيا بنا ! »
فقلت : أين شيبوليث والطبيب ؟

قلت : لقد انطلقا في غيبتك إلى حيث تلقى هى
جزاء شرها ، وباقى هو جزاء خيره ...

محمد لطفي جمعة

وسرعان ما أخرجت من حقيبة زيتها الثمينة
مسدساً أنيقاً من الصدف المنزل بالفضة وصوبته إلى
صدرى وأطلقت ، فأنحيت وصرمت القذيفة فوق
هامتى واستقرت في ظهر الطبيب الذى كان لاهياً
في تشخيص المرض الذى اكتشف دواءه . ولكن
الشرطيين قبضوا عليها واكلوها بالأغلال والقيود

فقلت : لست جاسوسة . أنا بريئة . هذه وشاية
دنيئة وبلاغ كاذب . فقال لها الكولونيل وهو
يدس يده في ثيابها : ان لم تكونى جاسوسة فأنت
قاتلة . وهاهو ذا قتيلك الدكتور شارل يشهد عليك
دمه بأنك لا تؤذين إلا الذين يحسنون إليك .
وساقها الجند إلى سجن أنتيب حيث سبقتها زمرة
من شركائهن في انتظار المحاكمة أمام المجلس الحربى الأعلى

أتموا بالحج إسلامكم ، وبالعمره إيمانكم

وبزيارة النبی الکریم إخلاصكم

فقد توفرت لكم جميع وسائل الراحة

على الباخرتين

زمزم و كوثر

اطلبوا الاستعلامات الكافة من

شركة مصر للملاحة البحرية